

سلسلة عالمات الجزائر (01)
أم الحياء البسكرية
إقرأ ولوّن
أبو محمد جمال بن عمار بن الشريف

سلسلة عالمات الجزائر

(1)

أمّ الحياء صفيّة البسكرية

تأليف

أبو محمد جمال بن عمّار بن الشّريف

اسْمُ هَذِهِ الطفلَةِ الَّتِي تَرَيْنَهَا فِي الصُّورَةِ "صَفِيَّة" ... مَدِينَتُهَا الَّتِي تَسْكُنُ فِيهَا هِيَ مَدِينَة جَزَائِرِيَّة مَشْهُورَةٌ بِنَخِيلِهَا البَاسِقِ و بِتُمُورِهَا المُخْتَلِفَةِ الأَشْكَالِ ، الحُلوَةِ المَذَاقِ ... مَدِينَتُهَا هِيَ "بِسْكْرَة" .

إذَا نَظَرْتِ إِلَيْهَا فَإِنَّكِ سَتَجِدِينَهَا مِثْلَكِ تَمَامًا أَيَّتُهَا الطفلَةُ القَارِئَة ، إلا أَنَّهَا أَكْثَرُ مِنْكِ عِلمًا ، عَلى مَا أَظُنُّ. فإِذَا قرَأتِ و وَجَدْتِ أَنَّهَا أَكْثَرُ مِنْكِ عِلْمًا فَتَشَبَّهِي بِهَا حَتَّى تَصِيرِي مِثْلَهَا .

لَقَدْ عَاشَتْ هَذِهِ الطفلة فِي القَرْنِ التَّاسِعِ الهِجْرِيّ ، أَمَّا نَحْنُ فَنَعِيشُ فِي القَرْنِ الخَامِسِ عَشَرَ الهِجْرِيّ ، وَ هَذَا يَعْنِي أَنَّهَا سَبَقَتْنَا بِعِدَّةِ قُرُونٍ . فَكَمْ هُوَ عَدَدُ القُرُونِ الَّتِي سَبَقَتْنَا بِهَا ؟

حَفِظَتْ "صَفِيَّة" القُرْآنَ كُلَّهُ وَ هِيَ لا زَالَتْ بَعْدُ صَغِيرَةً.

إِنَّهَا اسْتَفَادَتْ كَثِيرًا مِنْ مَدِينَتِهَا "بِسْكْرَة" لأَنَّ بِهَذِهِ المَدِينَةِ يُوجَدُ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ . وَكَانَتْ مَرْكَزًا تِجَارِيًّا كَبِيرًا ، حَيْثُ تَأْتِيهَا قَوَافِلُ التُّجَّارِ لِبَيْعِ مَا لَدَيْهِمْ
وَ شِرَاءِ مَا يَحْتَاجُونَ . أَمَّا صَفِيَّةُ وَ أَبُوهَا فَكَانَا يُحِبَّانِ الكُتُبَ وَ المُطَالَعَةَ كَثِيرًا . وَلِذَلِكَ يَخْرُجَانِ إِلى السُّوقِ كُلَّ أُسْبُوعٍ لِيَشْتَرِيَا مِنَ الكُتُبِ الجَدِيدَةِ مَا يَرُوقُ لَهُمَا .

بِمَدِينَةِ "بِسْكْرَة" آنَذَاكَ مَسَاجِدُ كَثِيرَةٌ . وَ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ عِدَّةُ عُرْصَاتٍ . عِنْدَ كُلِّ عُرْصَةٍ يَجْلِسُ عَالِمٌ فِي عِلْمٍ مُعَيَّنٍ كَالنَّحْوِ أَوِ البَلاغَةِ أَوِ



الْفَلَكِ . وَ حَوْلَ كُلِّ عَالِمٍ يَلْتَفُّ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الطُّلاَّبِ يَأْخُذُونَ عَنْهُ الْعِلْمَ وَ الأَخْلاَقَ .

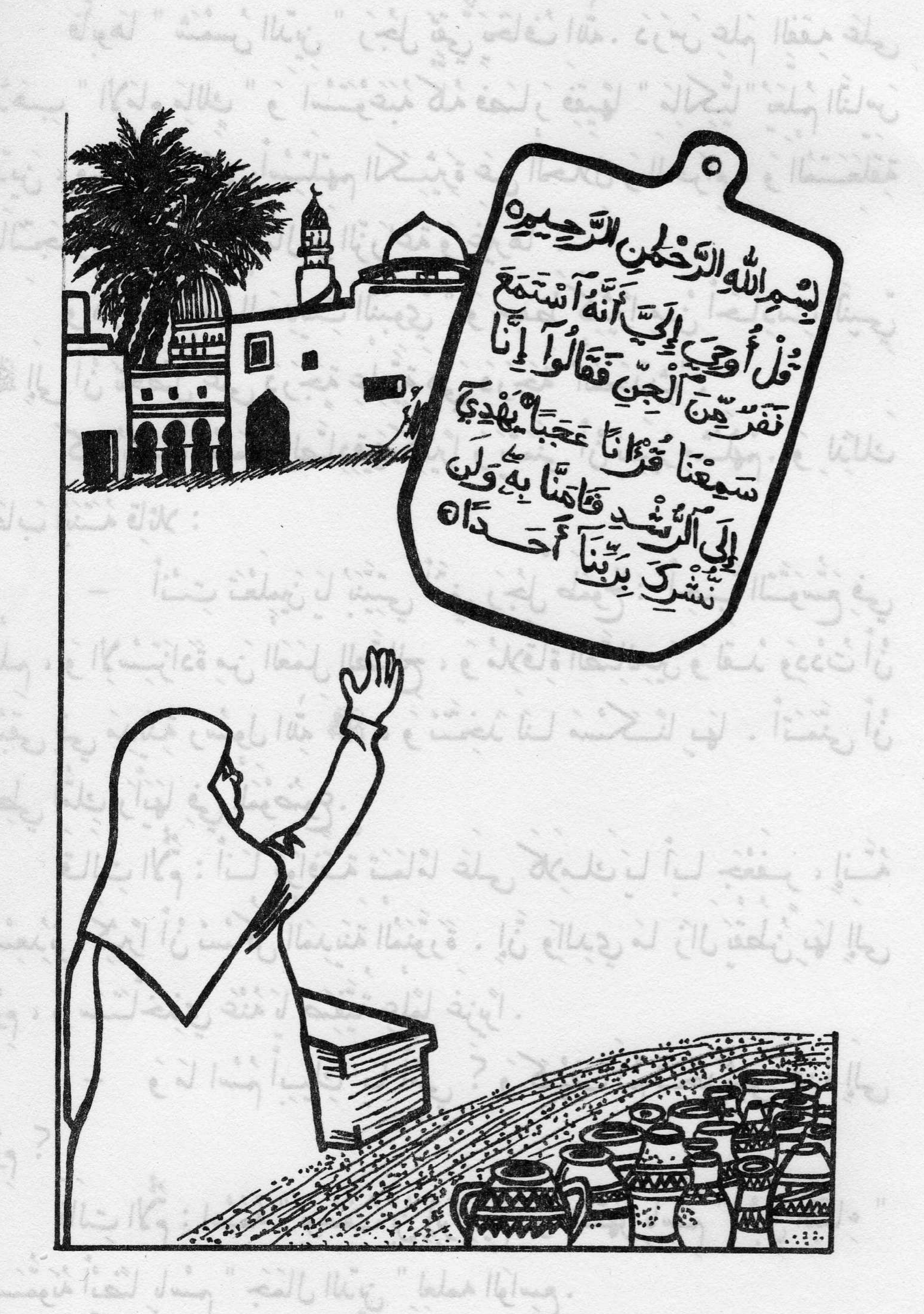
اعْتَادَتْ "صَفِيَّةُ" أَنْ تَجْلِسَ فِي حَلَقَاتِ الدَّرْسِ ، فِي جَنَاحِ النِّسَاءِ ، وَ لاَتُغَادِرُ حَلْقَةَ عَالِمٍ حَتَّى تَأْخُذَ عَنْهُ كُلَّ مَا يُدَرِّسُ مِنْ عِلْمٍ .

اشْتُهِرَ عَنْ "صَفِيَّةَ" أَنَّهَا شَدِيدَةُ الحَيَاءِ حَيْثُ كَانَتْ تَسْتَحِي مِنْ فِعْلِ كُلِّ الأَخْلاَقِ الفَاسِدَةِ ، وَ لَمْ يُعْرَفْ عَنْهَا أَنَّهَا أَسَاءَتِ الْخُلُقَ وَ لَوْ مَعَ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ ، وَ لَمْ تَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ طُولَ حَيَاتِهَا . وَ لِذَلِكَ سَمَّاهَا شُيُوخُهَا "أُمَّ الحَيَاءِ" . وَ اتَّبَعَهُمْ النَّاسُ فِي تِلْكَ التَّسْمِيَةِ.

عِنْدَمَا أَتَمَّتْ دِرَاسَتَهَا فِي بِسْكَرَةَ كَانَتْ لاَ تَزَالُ صَغِيرَةً لَمْ تَتَجَاوَزِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِهَا تَقْرِيبًا . فَقَالَتْ لأَبِيهَا يَوْمًا :

– يَا أَبِي ، لَقَدْ أَنْهَيْتُ دِرَاسَتِي ، وَ اشْتَقْتُ إِلَى التَّعَلُّمِ فِي بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ؛ فَأَرَى الْكَعْبَةَ وَ أُقَبِّلَ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ الْمَوْجُودَ فِي أَحَدِ أَرْكَانِهَا . إِنِّي أُحِسُّ حَنِينًا كَبِيرًا إِلَى زِيَارَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، فَأَمْشِي فِي جَمِيعِ أَرْجَائِهَا لَعَلِّي أَضَعُ رِجْلِي فِي مَكَانٍ وَضَعَ فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ رِجْلَهُ فَمَاذَا تَقُولُ يَا أَبِي؟

اسْمُ أَبِيهَا هُوَ "مُحَمَّدُ بْنُ عُنُقَةَ الْبِسْكَرِي" إِلاَّ أَنَّ النَّاسَ يُنَادُونَهُ بِاسْمِ "شَمْسِ الدِّينِ" وَ هَذَا لِعِلْمِهِ الغَزِيرِ وَ يُنَادُونَهُ كَذَلِكَ بِاسْمِ أَبِي جَعْفَرٍ لأَنَّ ابْنَهُ الأَكْبَرَ اسْمُهُ "جَعْفَر" .


بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ
نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا
سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي
إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن
نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا

فأبوها " شَمْسُ الدّينِ " رَجُل تَقِيٌّ يَخافُ اللهَ. دَرسَ عِلمَ الفِقهِ عَلى مَذهَبِ " الإمامِ مالكٍ " وَ اسْتَوْعَبَهُ كلّهُ فصارَ فَقيهًا " مالكِيًّا " يُعَلِّمُ النّاسَ الدّينَ ، وَ يُجيبُ عَلى أسْئِلَتِهِم الكَثيرَةِ عَن الحَلالِ و الحَرامِ ، وَ المُتَعَلّقَةِ بِالتِّجارَةِ وَ الإرْثِ و المَالِ وَ الزّراعَةِ وَ غيرِها .

وَ دَرسَ "عِلمَ الحَديثِ النّبَويّ " وَ حَفظ كَثيرًا مِنْ أحاديثِ النّبِيِّ ﷺ إلى أنْ تَحصّلَ عَلى دَرَجَةٍ عِلميَّةٍ هِيَ دَرجَةُ "المُحدّث" .

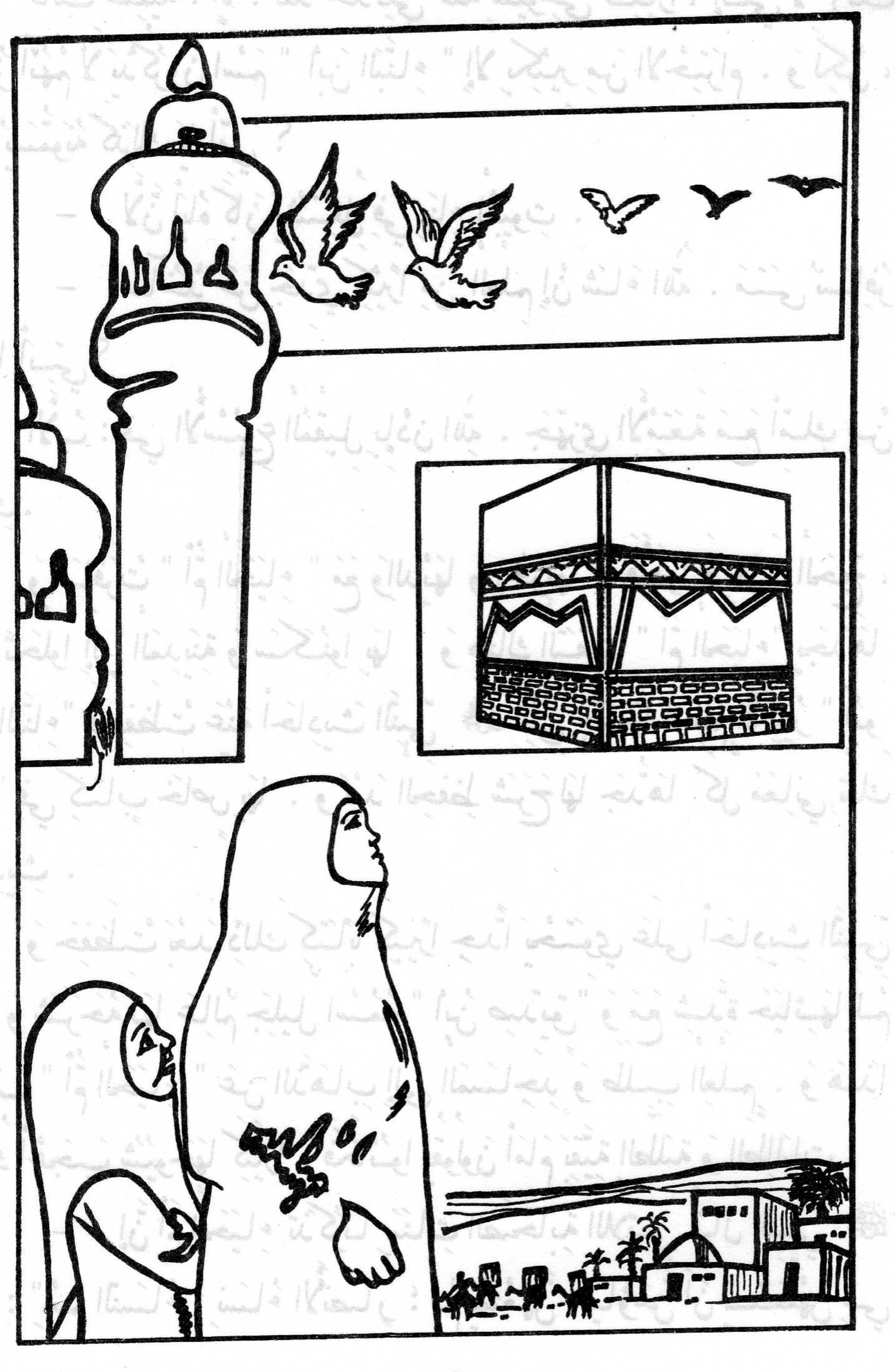
كانَ يُحِبُّ العُلَماءَ الصّادِقينَ كَثيرًا وَ يَتَمَنّى أنْ يَصيرَ مِثْلَهُمْ. وَ لِذَلِك أجابَ ابْنَتَهُ قائلا :

- أنْتِ تَعْلَمينَ يا بُنَيَّتي أنّني رَجُل طَمُوحٌ ؛ أحِبُّ التَّوسُّعَ فِي العِلمِ ، وَ الاِسْتِزادَةَ مِنَ العَمَلِ الصّالِح ، وَ مُلاقاةِ الصّالِحينَ و لَقدْ وَدِدْتُ أنْ نَبقى فِي مَدينَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَ نَتّخِذَ لَنا مَسْكَنًا بِها . أتَمَنّى أنْ تُعْطِي أمُّكِ رأيَها فِي المَوْضُوعِ.

قالتِ الأمُّ : أنا مُوافِقةٌ تَمامًا عَلى كَلامِكَ يا أبا جَعْفَر ، إنّهُ لَيُسْعِدُني كَثيرًا أنْ نَسكُنَ المَدينَةَ المُنَوَّرَةَ . إنَّ وَالِدي ما زال يَقطُنُ بِها إلى اليَوْمِ ، وَ سَتَأخُذي عَنْهُ يا صَفِيَّةُ عِلمًا غزيرًا .

- وَ مَا اسْمُ أبيكِ يا أمّي ؟ وَ كَيْفَ لَمْ تُحَدِّثيني عَنْهُ إلى اليَوْمِ ؟

قَالَتِ الأمُّ : اسْمُهُ " يُوسُفُ بْنُ إبْراهِيمَ" وَ اشْتَهَرَ بِاسْمِ " ابْنِ البَنّاءِ " وَ يُسَمُّونَهُ أيْضًا بِاسْمِ " جَمَال الدّينِ " لِعلمِه الوَاسِع.



قالتْ صَفِيَّةُ : آهٍ ! لقدْ حدَّثَنِي عَنْهُ شُيُوخِي كَثِيرًا . إِنَّنِي لا زِلْتُ أَتذكَّرُ أَنَّهُمْ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ " ابْنَ البَنَّاءِ " إِلاَّ بِكَثِيرٍ مِنَ الاحْتِرَامِ . وَلَكِنْ، لِمَاذَا يُسَمُّونَهُ كذلكَ يا أمّي ؟

– لأنَّ أبَاهُ كانَ يشْتَغِلُ فِي بِنَاءِ البُيُوتِ .

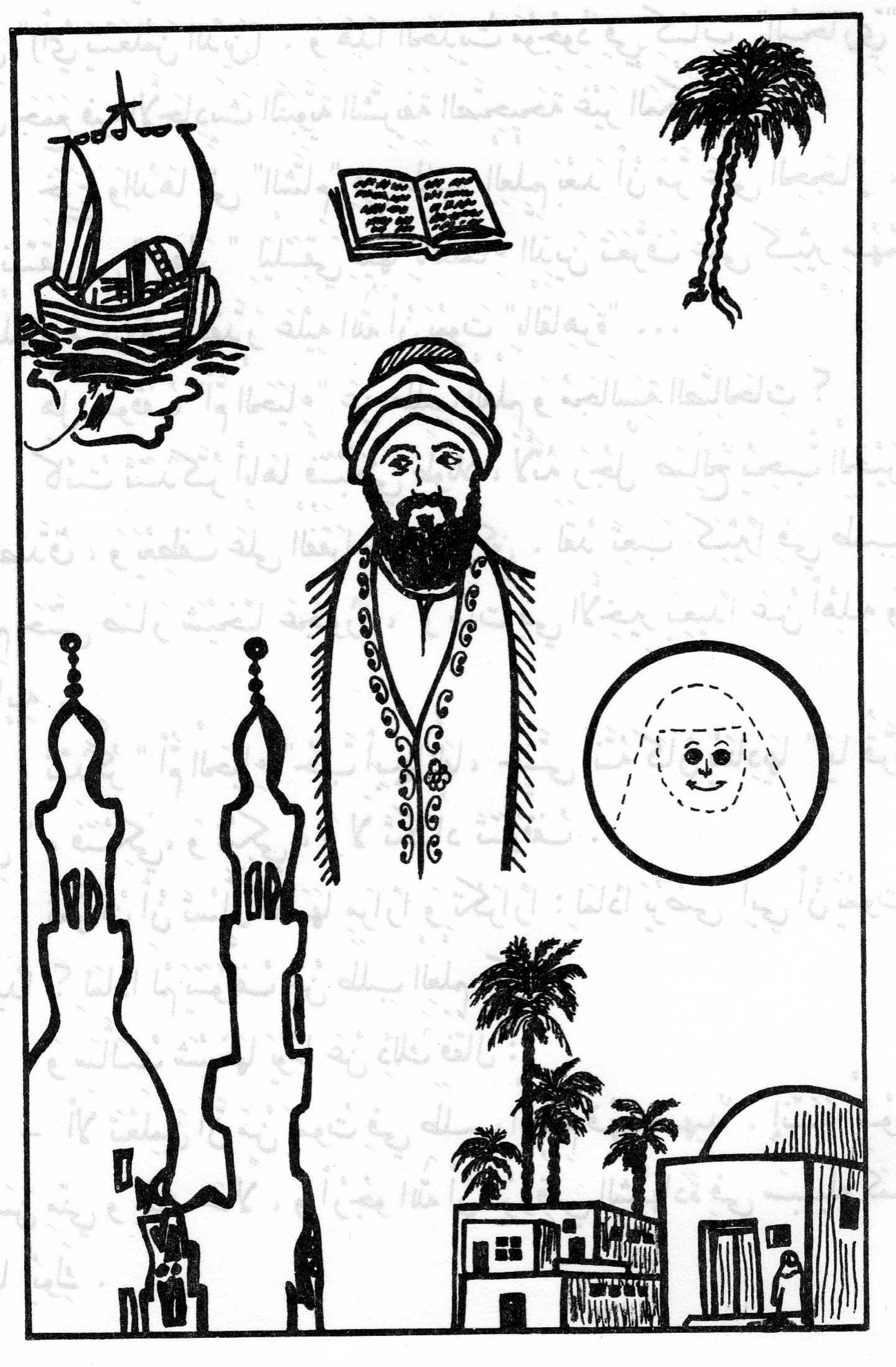
– سَآخُذُ عَنْ جَدّي كَثِيرًا مِنَ العِلْمِ إِنْ شَاءَ اللهُ . مَتَى نُسَافِرُ إِذَنْ يَا أَبَتِي ؟

الأَبُ : فِي الأُسْبُوعِ المُقْبِلِ بِإِذْنِ اللهِ . جَهِّزِي الأَمْتِعَةَ مَعَ أُمِّكِ مِنْ فَضْلِكِ .

وَسَافَرَتْ " أُمُّ الحَيَاءِ " مَعَ وَالِدَيْهَا وَإِخْوَتِهَا . فَأَدَّوْا فَرِيضَةَ الحَجِّ ، ثُمَّ ارْتَحَلُوا إِلَى المَدِينَةِ وَسَكَنُوا بِهَا . وَهُنَاكَ التَقَتْ " أُمُّ الحَيَاءِ " بِجَدِّهَا " ابْنِ البَنَّاءِ " فَحَفِظَتْ عَنْهُ أَحَادِيثَ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي جَمَعَهَا العَالِمُ الكَبِيرُ " أَبُو مُسْهَر " فِي كِتَابٍ خَاصٍ بِهَا . وَبَعْدَ الحِفْظِ شَرَحَ لَهَا جَدُّهَا كُلَّ مَعَانِي تِلْكَ الأَحَادِيثِ .

وَحَفِظَتْ بَعْدَ ذَلِكَ كِتَابًا كَبِيرًا جِدًّا يَحْتَوِي عَلَى أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَشَرَحَهُ لَهَا عَالِمٌ جَلِيلٌ اسْمُهُ " ابْنُ صِدِّيق " وَمَعَ شِدَّةِ حَيَائِهَا لَمْ تَتَوَقَّفْ " أُمُّ الحَيَاءِ " عَنِ الذَّهَابِ إِلَى المَسَاجِدِ وَطَلَبِ العِلْمِ . وَهَذَا السُّلُوكُ أَعْجَبَ شُيُوخَهَا كَثِيرًا ، فَكَانُوا يَقُولُونَ أَمَامَ بَقِيَّةِ الطَّلَبَةِ وَالطَّالِبَاتِ :

– إِنَّ أُمَّ الحَيَاءِ تُذَكِّرُنَا بِبَنَاتِ الصَّحَابَةِ اللاَّتِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِنَّ : "نِعْمَ النِّسَاءُ : نِسَاءُ الأَنْصَارِ ، لَمْ يَمْنَعْهُنَّ حَيَاؤُهُنَّ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي



الدِّين "(أي يتعلمن الدين) . وَ هذا الحديثُ موجودٌ في كتابِ "البخاري" الذي جمعَ فيهِ الأحاديثَ النبويّةَ الشّريفة الصّحيحة غيْرَ المكذُوبَة.

خرجَ والدُهَا إلى "الشّام" في طلبِ العلمِ بعْدَ أنْ مرَّ على الحجاز ، ثمَّ انتقلَ إلى "مصر" ليلتقيَ فيهَا بالعُلمَاءِ الذينَ تعرَّفَ على كثيرٍ منهُمْ في بُلدانٍ مُتفرّقةٍ . فقدَّرَ عليْهِ اللهُ أنْ يموتَ "بالقاهرة" ...

هَل تتوقفُ "أمُّ الحياءِ" عنْ طلبِ العلمِ وَ مُجالسةِ الصّالحاتِ ؟

كانتْ تتذكّرُ أباهَا فتبْكِي طويلا ، لأنّهُ رجلٌ صالحٌ يُحبُّ الخيْرَ وَ يتصدّقُ ، وَ يعْطفُ على الفقراءِ وَ المساكينِ . لقدْ تعبَ كثيرًا في طلبِ العلمِ حتّى صارَ شيْخًا عجُوزًا ، وَ ماتَ في الأخيرِ بعيدًا عنْ أهْلهِ وَ أحْبابِهِ .

تتذكّرُ " أمُّ الحياءِ "حُبَّ أبيهَا لهَا، حتّى أنّهُ كانَ يُناديهَا " يا قُرّةَ العيْنِ " ، فتبْكِي، وَ تبْكِي ، وَ لا تكادُ تتوقفُ .

تعوّدتْ أنْ تسْألَ نفسهَا مرارًا وَ تكْرارًا : لماذا يرْضَى أبِي أنْ يمُوتَ وَحيدًا ؟ لماذا لمْ يتوقّفْ عنْ طلبِ العلمِ ؟

وَ سألتْ شيْخهَا يومًا عنْ ذلكَ فقال :

- ألا تعْلمينَ أنَّ منْ يمُوتُ في طلبِ العلمِ فهُوَ شهيدٌ . إنّهُ اليوْمَ أحْسَنُ منّي وَ منْكِ حالا ، وَ أرْجُو اللهَ أنْ يرْزُقني الشّهادةَ في سبيلهِ كما نالهَا أبُوكِ .



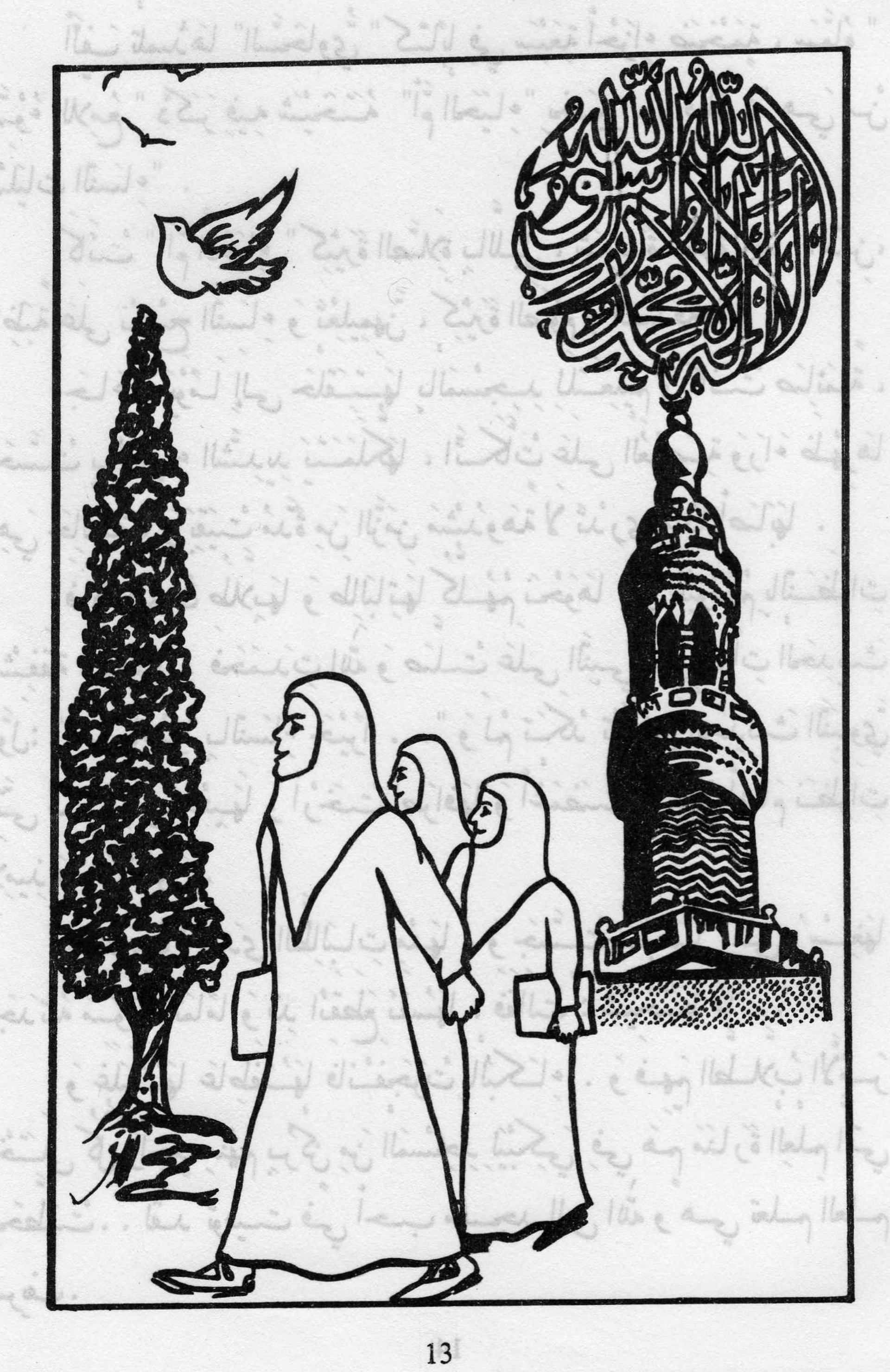
لَمْ تَتَوَقَّفْ " أُمُّ الحَيَاءِ" عَنْ طَلَبِ العِلْمِ يَوْمًا وَاحِدًا بَلْ دَرَسَتْ جَمِيعَ أَنْوَاعِ العُلُومِ آنَذَاكَ . وَ أَخَذَتِ العِلْمَ عَنْ مَجْمُوعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي المَسْجِدِ النَّبَوِيّ الشَّرِيفِ وَ أَذِنَ لَهَا شَيْخُهَا العَلامَةُ : "التَّنُوخِيُّ" أَنْ تُدَرِّسَ فِي مَكَانِهِ وَ أَجَازَ لَهَا كَذَلِكَ أُسْتَاذُهَا " أَبُو هُرَيْرَةُ بْنُ الذَّهَبِيِّ" فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ أَعْلَنَ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ أَنَّ " أَمَّ الحَيَاءِ " هِيَ أَكْبَرُ عَالِمَةٍ مِنَ النِّسَاءِ عَلَى الإِطْلاقِ.

وَ اجْتَمَعَ العُلَمَاءُ فَأَجْرَوْا لَهَا امْتِحَانَ "الْمُبْتَدِئَةِ" فِي عِلْمِ الحَدِيثِ النَّبَوِيّ ، فَفَازَتْ ، ثُمَّ أَجْرَوْا لَهَا امْتِحَانَ "المُحَدِّثَةِ" فَفَازَتْ أَيْضًا بِامْتِيَازٍ جَيِّدٍ جِدًّا.

هَلْ تَعْلَمِينَ أَيَّتُهَا القَارِئَةُ كَمْ عَدَدُ العُلَمَاءِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى دَرَجَةِ هَذِهِ المَرْأَةِ اليَوْمَ فِي القَرْنِ الخَامِسَ عَشَرَ الهِجْرِيّ ؟ إِنَّنَا لا نَجِدُ سِوَى عَدَدًا لا يَتَجَاوَزُ أَصَابِعَ اليَدِ الوَاحِدَةِ فَحَسْبُ، عَلَى مُسْتَوَى العَالَمِ الإِسْلامِيّ كُلِّهِ ، حَسَبَ مَا نَعْلَمُ . وَ هَذَا يُبَيِّنُ لَكِ مَكَانَةَ "أُمِّ الحَيَاءِ" فِي العِلْمِ .

وَ بَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَتْ ، اشْتَغَلَتْ أُمُّ الحَيَاءِ بِتَعْلِيمِ جَمِيعِ العُلُومِ لِلْبَنَاتِ وَ لِلنِّسَاءِ وَ كَانَتْ تُدَرِّسُ حَتَّى الرِّجَالِ أَحَادِيثَ النَّبِيّ ﷺ .

وَ تَخَرَّجَ عَلَى يَدَيْهَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ العَالِمَاتِ وَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ مِنْهُمْ " النَّجْمُ بْنُ فَهْدٍ" وَ " السَّخَاوِيُّ" .



أَلَّفَ تِلْميذُهَا "السَّخَاوِيُّ" كِتَابًا فِي سَبْعَةِ أَجْزَاءٍ ضَخْمَةٍ ، سَمَّاهُ " الضَّوْءُ اللامِعُ " ذَكَرَ فِيهِ شَيْخَتَهُ "أُمَّ الحَيَاءِ" بِخَيْرٍ ، وَ قَالَ : "هِيَ مِنْ فُضْلَيَاتِ النِّسَاءِ" .

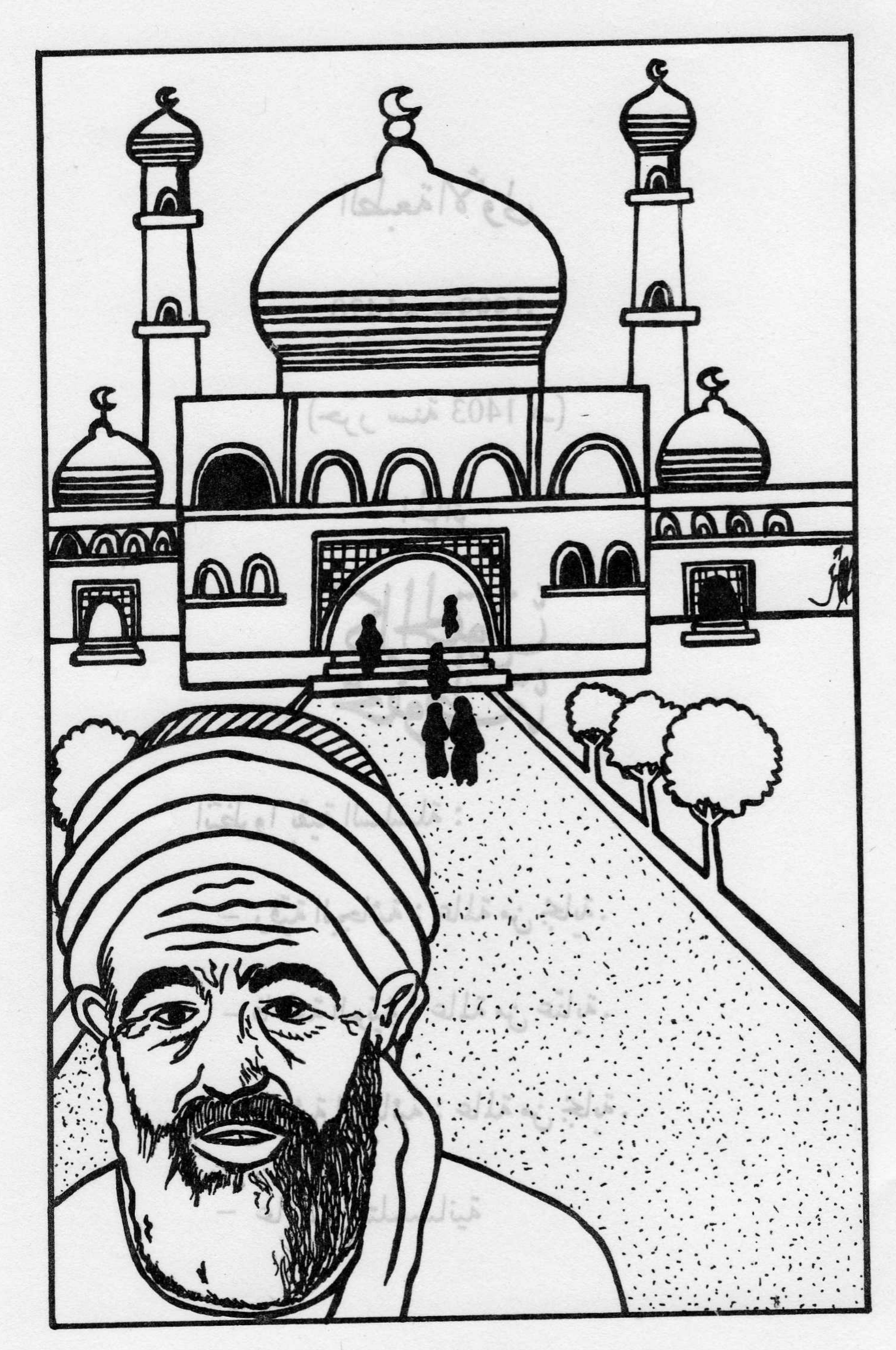
كَانَتْ " أُمُّ الحَيَاءِ " كَثِيرَةَ الصَّلاةِ بِاللَّيْلِ ، شَدِيدَةَ الغَيْرَةِ عَلَى الدِّينِ، مُوَاظِبَةً عَلَى نُصْحِ النِّسَاءِ وَ تَعْلِيمِهِنَّ ، كَثِيرَةَ الصَّوْمِ وَ الصَّدَقَةِ .

جَاءَتْ يَوْمًا إِلَى حَلَقَتِهَا بِالمَسْجِدِ لِلتَّعْلِيمِ وَ كَانَتْ صَائِمَةً ، فَأَحَسَّتْ بِالإِعْيَاءِ الشَّدِيدِ يَتَمَلَّكُهَا ، اتَّكَأَتْ عَلَى العُرْصَةِ وراءَ ظَهْرِهَا وَ هِيَ جَالِسَةٌ ، وَ بَقِيَتْ مُدَّةً مِنَ الزَّمنِ مَشْدُوهَةً لا تَدْرِي مَاذَا أَصَابَهَا .

فَإِذَا قُلُوبُ طُلابِهَا وَ طَالِبَاتِهَا كُلُّهُمْ نَحْوَهَا ، وَ عُيُونُهُمْ بِالنَّظَرَاتِ المُشْفِقَةِ تَرْمُقُهَا . فَحَمَدَتِ اللهَ وَ صَلَّتْ عَلَى النَّبِيِّ ، وَ قَرَأَتِ الحَدِيثَ الأَوَّلَ: " اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ... " وَ لَمْ تَكَدْ تُكْمِلِ الحَدِيثَ النَّبَوِيَّ حَتَّى مَالَتْ إِلَى جَنْبِهَا وَ أَرْخَتْ أَطْرَافَهَا وَ أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا أَمَامَ نَظَرَاتِ تَلامِيذِهَا المَذْعُورَةِ.

تَقَدَّمَتْ إِحْدَى الطَّالِبَاتِ مِنْهَا ، وَ جَسَّتْ نَبْضَهَا فِي رُسْغِهَا فَوَجَدَتْهُ مُتَوَقِّفًا تَمَامًا وَ قَدِ انْقَطَعَ نَفَسُهَا ، فَقَالَتْ : شَيْخَتُنَا مَا...

وَ غَلَبَتْهَا عَاطِفَتُهَا فَانْفَجَرَتْ بِالْبُكَاءِ . وَ فَهِمَ الطُّلَّابُ الأَمْرَ فَاخْتَلَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِرُكْنٍ مِنَ المَسْجِدِ لِيَبْكِيَ فِي هَمٍّ مَنَارَةَ العِلْمِ الَّتِي تَحَطَّمَتْ. . لقد توفيت في أحب مسجد إلى الله و هي تعلم العلم الشريف.



الطّبعة الأولى

1420 هـ - 1999م

(حرّر سنة 1403 هـ)

الجزائر

انظروا بقية السلسلة :

- رقيّة البجائية : عالمة من بجاية.

- فاطمة البونية : عالمة من عنّابة.

- عائشة البجائية : عالمة من بجاية.

- عائشة التلمسانية

تم السحب بمطبعة دار الهدى عين مليلة - الجزائر

انتظروا بقية السلسلة:

- رقيّة البجائية: عالمة من بجاية.

- فاطمة البونية: عالمة من عنّابة.

عائشة البجائية: عالمة من بجاية.

- عائشة التلمسانية

تم السحب بمطبعة دار الهدى عين مليلة - الجزا